الهمزة وأثرها في اللهجات العربية

بحث مقدم للنشر

في مجلة كلية اللغة العربية بجرجا

د / خلف السيد رضوان

المدرس في قسم أصول اللغة بالكلية

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحابته والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

فقد شاع في الدراسات اللغوية أن علماء العربية عامة، والنحاة خاصة، قد أهملوا الحديث عن اللهجات العربية القديمة، اللهم إلا نتفا مبعثرة هنا وهناك(١) ومن ثم وليت وجهي شطر كتب التراث لأرد على تلك الترهات، والأباطيل، ونشدت ضالتي في دستور العربية الأول، أو في «قرآن النحو» كما سماه أحد القدامى(٢) ألا وهو «كتاب سيبويه» (ت ١٨٠هـ على الأرجح)(٣) إمام النحاة، ومن خلال تجوالي الفاحص والمتأني في هذا الدستور، بدا لي واضحا - دون أدنى ريب - أن اهتمام سيبويه باللهجات العربية، لا يقل عن اهتمامه بالفصحى، حتى ليذهب بنا الظن إلى أن الفصحى عنده هي اللهجات نفسها، فنطق القبائل العربية على اتساع بيئاتها، وتباين مضاربها، يعد في نظره وحدة واحدة، تدرس

---

(١)فصول في فقه العربية / ٧٤/ د. رمضان عبد التواب

(٢) مراتب النحويين / ٦٥/ لأبي الطيب اللغوي

(٣) تاريخ بغداد / ١٢/ ١٩٨، نزهة الألباء/ ٨١، طبقات النحويين/ ٤٩.

جميعا لاستنباط القواعد منها، يقوى هذا ويدعمه، تلك الوجوه العديدة التي نجدها للمسألة النحوية الواحدة، ولكل وجه توجيه وتعليل.

من هذا المنطلق عقدت العزم على اختيار هذا الكتاب ليكون مادة الرد على تلك الدعوى المزعومة، من خلال موضوع هذا البحث، ولكن شمولية هذا الكتاب وتنوع المادة اللغوية فيه، اقتضت مني أن تكون الردود في أبحاث منفصلة، ورغم الصعاب التي تكتنف المادة اللغوية في هذا الكتاب، ولاسيما إذا علمنا أن طريقة سيبويه في عرضه للهجات العربية القديمة تتمثل في صورتين:

(١) المواضع التي ذكر فيها أصحاب اللهجات وقليلة ما هي.

(٢) المواضع التي لم يذكر فيها أصحاب اللهجات بل تركها غفلا.

فإنني لم أتراجع عن اختيار هذا الكتاب ليكون مادة لتلك الدراسة اللهجية مستعينا بالذى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي الوقت نفسه، جعلت أول بحث لي عن «الهمزة» وهي الصوت الذي تعاورته آراء العلماء قديما وحديثا من نواح عديدة.

هذا ويتضمن البحث في الهمزة من الناحية اللهجية أمرين هما:-

١- الهمزة الأصلية.* ٢- الهمزة غير الأصلية.*

وقبل أن يخوض الباحث غمار البحث عن الهمزة عند سيبويه من

---

* وهي الألف العربية القديمة حين كانت رمز الصوت ساكن حنجري، وقبل أن تصبح دلالتها مشتركة، فتستحدث تلك التسمية الجديدة برمزها الجديد، لتدل أيضا على مدلولين مشتركين كما نرى، ولكنهما متوافقان لا متعارضان، كما في حالة الألف، وهذه الهمزة هي التي تكون أصلا من أصول الكلمة.

* هي الهمزة الوظيفية، التي قد غلبت بكثرة ورودها وجود الأصلية، حتى كادت الأصلية أن=

الناحية اللهجية، أجد لزاما علي أن أعطي القارئ الكريم لمحة عن الهمزة من الناحية التاريخية والصوتية (صفة ومخرجا). فالهمزة أحد الأصوات الصامتة، وقد شاع في اللغة العربية، واعترف به كصوت أساسي فيها، وذلك «لثبوته في النطق قبل الرسم الذي هو اصطلاح وتواضع»(١).

وقد سميت الهمزة بهذا الاسم، لأنها تهمز فتهت، فتنهمز عن مخرجها، يقال: هو يهت هتا: إذا تكلم بالهمزة(٢) وعلى الرغم من الاعتراف به كصوت أساسي، ووضعه أول الحروف الهجائية، إلا أنه لم يحظ برسم خاص قياسا على جميع الأصوات الصامتة، ولعل ذلك راجع إلى تطوره إلى صورة أخرى بالتخفيف إبدالا، فيصير إلى الألف إن سكن وسبق بفتح نحو: راس في رأس، ويصير إلى الياء إن سكن وسبق بكسر نحو: بير في بئر، ويصير إلى الواو إن سكن وسبق بضم: نحو: مومن في مؤمن، وقد تسهل وتخفف، ولهذا لم يرمز لها برمز يخصها والرمز الذي نعرفه الآن للهمزة حديث بالنسبة

= تختفي ملامحها، وبخاصة حين نجدهما تخضعان لأحكام واحدة من الحذف والتسهيل وغيرهما (القراءات القرآنية/ ٢١٠/ د. شاهين)

(١) المعجم الكبير/ جـ١/ ٣ (حرف الهمزة)

(٢) لسان العرب [illegible] (هـ.م.ز) لابن منظور.

للرسم العثماني(١).

ومن المقرر في هذا المقام أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو الذي اختار أن يكون رمز الهمزة في الخط العربي رأس العين الصغيرة (ء)(٢) وذلك لما لاحظ من القرابة المخرجية بين صوتي العين والهمزة ويجرنا الحديث هنا إلى توضيح الفرق بين الهمزة والألف، نظرا لما حدث من خلط بين الهمزة والألف في دراسات الأقدمين من علماء العربية، فقد ظل مفهوم الهمزة مختلطا - بعض الشيء - في أذهان علمائنا القدامى بمفهوم الألف(٣).

فها هو أبو العباس المبرد يخرج الهمزة من بين حروف الأبجدية، ويعدها ثمانية وعشرين حرفا، جاعلا أولها الباء، تاركا الألف من أولها، ويقول «هي همزة، ولاتثبت على صورة واحدة، وليست لها صورة مستقرة، فلا يعتدبها مع الحروف التي أشكالها محفوظة معروفة»(٤).

كما ذكر ابن جنى مرارا أن الألف صورة الهمزة مقدما دليلين على ذلك(٥):

---

(١) الأصوات اللغوية د/ أنيس / ٨٩، التجويد والأصوات د/ نجا ٦٩، أصوات اللغة العربية د/ عبد الغفار/ ٨٦.

(٢) تاريخ الأدب/ ٧٦/ لحفني ناصف.

(٣) سر الصناعة / ١/ ٤٦/ لابن جني. المفـ ١٠٠/ ١٢٦/ لابن يعيش.

(٤) سر الصناعة/ ١/ ٤٦، ٨٤

(٥) المصدر السابق / ١/ ٤٦، ٤٧.

أولهما: أن الهمزة لو أريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفا على كل حال، يدل على صحة ذلك أنك إذا أوقعتها موقعا لا يمكن فيه تخفيفها، ولا تكون فيه إلا محققة، لم يجز أن تكتب إلا ألفا، مفتوحة كانت أو مضمومة أو مكسورة، وذلك إذا وقعت أولا نحو: أخذ وأخذ - بالبناء للمعلوم والمجهول - وإبراهيم، وعلى هذا وجدت في بعض المصاحف «يستهزأون» بالألف قبل الواو، ووجد فيها أيضا «وإن من شيأ إلا يسبح بحمده» بالألف بعد الياء، وإنما ذلك لتوكيد التحقيق.

ويشير ابن جنى إلى هذه العلة لم ينفرد بها وحده، بل وردت أيضا في كلام الفراء، كما وردت في بعض كلام أبي بكر محمد بن السرى، ويحمل اتفاق آرائهم في تحديد هذه العلة على أنه من قبيل توارد الأفكار، ولذلك نجده يقول «ثم إني رأيتها بعد ذلك في بعض كلام الفراء، فلا أدري: أأصاب أبا بكر مع الفراء ما أصابني أنا من الموارد له، أم هو شيء سمعه فحكاه واعتقده؟».

ثانيهما: أن كل حرف سميته ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه، ألا ترى أنك إذا قلت (جيم) فأول حروف الحرف (جيم) وإذا قلت (دال) فأول حروف الحرف (دال) وإذا قلت (حاء) فأول ما لفظت به (حاء) وكذال إذا قلت: ألف، فأول الحروف التي نطقت بها همزة، فهذه دلالة أخرى غريبة على كون صورة الهمزة مع التحقيق ألفا».

وفرق بينهما سيبويه على أساس الحركة فقال «الهمزة حرف كالعين، يحتمل الحركة والسكون، ويكون في أول الكلمة وآخرها ووسطها، والألف حرف آخر لا يكون إلا ساكنا، ولا يكون في أول الكلمة، ولذلك وضع واضع حروف المعجم الهمزة أول الحروف، والألف مع اللام قبل الياء»(١).

ومن هذا العرض نرى أن أبا العباس المبرد يخرجها من عداد الحروف الأبجدية نظرا لعدم ثبوتها على حال، وإن كان ابن جنى يرى أن قوله هذا دليل على حرفيتها وأصالتها قائلا «ألا ترى أن الألف والواو والياء والتاء والهاء والنون وغيرهن قد يقلبن في بعض الأحوال، ولا يخرجهن ذلك من أن يعتددن حروفا»(٢).

وسيبويه وابن جنى يريان التفرقة بينهما على أساس الحركة، كما فرق بينهما ابن جنى من حيث المخرج، ولكن الفراء يرى من ناحية أخرى ترادف الهمزة والألف، فيقول «الهمزة هي الأصل، والألف الساكنة هي الهمزة وترك همزها»(٣) كما يقول ابن يعيش بالترادف أيضا(٤).

وعلى الرغم من ذلك فقد اتفق الجميع على أن الألف حرف ساكن(٥) وننتحل العذر لهم في ذلك فنقول: لعل هذا الخلط

(١) حاشية الصبان نقلا عن حاشية السيوطي علي المغني / ٤/ ٢٨٦.
(٢) سر الصناعة / ١/ ٤٨.
(٣) حاشية الصبان نقلا عن حاشية السيوطي علي المغني/ ٤/ ٢٨٦.
(٤) المفصل/ ١٠/ ١٢٦.
(٥) حاشية الصبان نقلا عن حاشية السيوطي علي المغنى/ ٤/ ٢٨٧.

والاضطراب ناشئ عن لمسهم العلاقة بين الألف والهمزة في الأصل، فالألف كانت وظيفتها وظيفة الهمزة، حين لم تكن تسمية الهمزة موجودة، وربما كان هذا التصور عن العلاقة بين الهمزة والألف وعدم التمييز بينهما تمييزا كاملا ناشئا عن أصل نطق الهمزة وصورتها في الكتابة العربية منذ الوضع اللغوي القديم، فلم يكن اسم الهمزة معروفا في ذلك الوقت، وإنما كان يعبر عن صوتها المعروف الآن في الدراسات الحديثة بـ (الاحتباس الحنجري - Occlusive glot-tale) أو (الحبسة الحنجرية - Glottal stop) بالألف. ولا عجب في ذلك، فقد كان يعبر عن هذا الصوت قديما بالألف سواء في العربية أوم في غيرها من الساميات، فهو في العبرية (ألف) بإمالة حركة اللام، وفي الأرامية (آلف) وفي الحبشية (ألّف) بسكون اللام، وهو فيها جميعا صوت احتباسي (Occlusive) غير أنه أخذ يضعف في الآرامية حتى فقد تقريبا كل قيمته الصوتية كساكن (Savalcur Con-sonantique)(١) بل لقد مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منه في النطق(٢) إلا أن اللغة العربية الفصحى قد احتفظت بهذا الصوت الاحتباس الحنجري في نطق التميميين وبعض الحجازيين.

ومن المعلوم أن العرب «قد استعملوا الخط الآرامي ابتداء في كتابة

(١) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديثة / ١٧/ د. عبد الصبور شاهين.
(٢) في اللهجات العربية/ ٧٧/ د. أنيس، دروس في أصوات العربية / ٤٣.

لغتهم وذلك في بداية القرن الثالث الميلادي، وعندما أرادوا تسجيل هذا الصوت الاحتباسي الحنجري، واجهتهم مشكلة تصويره، لأنهم لم يجدوا مقابلا له، فالصوت (ألف) قل استعماله حين فقد قيمته كصوت ساكن، فأصبح مختصا بالحركة الطويلة (الفتحة) وعندما اكتمل الخط العربي تخيلوا لهذا الصوت الاحتباسي الحنجري اسما جديدا خاصا به هو اسم (الهمزة) وعلى ذلك فتسمية الصوت بهذا الاسم (الهمزة) حديث نسبيا على ما قرره كانتنيو(١).

ويعضد هذه الوجهة أن الهمز من الناحية اللغوية ليس علما على صوت من أصوات اللغة، وإنما هو وصف لكيفية نطقه لا تختص في ذاتها بصوت معين، فالهمز في معاجمنا اللغوية مثل الغمز والضغط والنبر(٢) وكلمة «النبر» العربية يقابلها (Stress في الإنجليزية) و (Accent في الفرنسية)، فكأن المصطلحات الثلاث (الهمز والضغط والنبر) بمعنى واحد.

وبناء على ما تقدم، يكون المعنى اللغوي العام للهمز هو «كيفية في أداء الكلام» أو بعبارة أدق «كيفية في نطق الحروف أو الأصوات اللغوية حين يخصها الناطق بمزيد من التحقيق أو الضغط، لا يستأثر بذلك حرف دون آخر «فإذا ضغ الناطق علي مقطع (الألف) فى الفعل (أخذ) كانت الألف مهموزة(٣).

(١) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث/ ١٨.
(٢) لسان العرب/ مادتي (هـ.م.ز - ن.ب.ر).
(٣) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث / ٢٢.

وقد أطلق بعض القدماء على هذا اللون من الضغط همزة، حين أرادوا الربط بين لفظة الهمز وبعض الظواهر اللغوية، فحديث ابن جنى عما أسماه «همزة التذكر» ليس في الواقع حديثا عن همزة اصطلاحية، لأنه ليس في الكلام همزة بالمعنى الاصطلاحي المعروف، بل لا يعدو الأمر إلا أن يكون مطلا للحركة في آخر الكلمة للإشعار بأنك تريد أن تتذكر لفظا تاليا لها، فهمزة التذكر نحو أِلى وقَدِى ومن قرأ «اشتروا الضلالة» قال في التذكر «اشتروواِ» ومن قرأ «اشتروِا الضلالة» بكسر الواو - قال في التذكر «اشتروي» ومن قال «اشترَو الضلالة» بفتح الواو - قال في التذكر «اشترَواَ»(١).

ومن هنا وجدنا العلامة ابن جنى يقول «وإنما مطلت هذه الأحرف في الوقف، وعند التذكر، من قبل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدة، لم يكن في لفظك دليل على أنك متذكر شيئا، ولأوهمت كل الإيهام أنك قد أتممت كلامك، ولم يبق من بعده مطلوب متوقع(٢).

ويبدو لي أن العرب قد وجدو أن أكثر الأصوات تعرضا للضغط هو «الألف» حين تتحرك، فأطلقوا عليها تلك الصفة المعروفة بالهمزة، تحديدا لماهيتها، وتمييزا لها من سواها، وهي بعينها المسماة في الدراسات الصوتية الحديثة بالاحتباس الحنجري أو الحبسة الحنجرية.

(١) الخصائص / ٢/ ٣٣٧/ لابن جنى.
(٢) المصدر السابق / ٣/ ١٢٨.

وهناك روايات في كتب الأدب واللغة تثبت عدم معرفة العربي الهمز بمعنى الاحتباس الحنجري المعروف لدينا الآن ومن هذه الروايات أن أحد الرواة «سأل رجلا من قريش قائلا: أتهمز الفأرة؟ «فلم يفطن الرجل القرشي لما أراد السائل، وأجاب ساخرا «إنما يهمزها القط»(١) «فاللغوي كان يقصد المعنى الاصطلاحي للهمز الذي هو ضد التسهيل- أعني تحقيق الهمزة - ولكن القرشي لم يكن يعرفه، فجرى على طبيعته اللغوية، وهو أن الهمز هو الغمز والضغط والدفع والضرب...»(٢).

وخلاصة القول فإن الاختلاط التاريخي بين مفهوم الألف والهمزة هو أساس خطأ القدماء في وصف الألف، ومن ثم فإن اسم «الهمزة» والذي نطلقه في عصرنا الحاضر على الاحتباس الحنجري قد ظهر في زمن متأخر بعد أن أصبحت الألف مختصة بالفتحة الطويلة، ورغم ذلك فقد ظل الأمر مختلطا على اللغوين، فظلوا يربطون بين الألف والهمزة، وإن كان ابن جنى قد فرق بينهما مخرجا(٣).

ويبدو لي أن السر وراء هذا الخلط والاضطراب عند القدماء هو أن الهمزة «كانت دائما تلقى بظلالها على الألف لتصبح في أعينهم صوتا ساكنا، على الرغم من أنهم قد اعترفوا بأن الفتحة جزء من الألف، فلولا

(١) لسان العرب/ مادة (هـ.م.ز) وقارن بالهجات العربية/ ٧٥/ د. أنيس.
(٢) الأصوات اللغوية/ ٨٤-٨٥/ د. أنيس ولسان العرب/ مادة (هـ.م.ز).
(٣) سر الصناعة/ ١/ ٤٨.

هذا الظل الهمزي لاستمروا في تصورهم عن الحركة القصيرة، وشكلها حين تطول، ولعاملوا جميع الحركات الطويلة حينئذ معاملة علمية صحيحة(١).

ويضيف الدكتور هلال أدلة أخرى على هذا الخلط والاضطراب بين مفهومي الألف والهمزة عند القدماء فيقول(٢) «ومن نتائج هذا الخلط ما نراه في كتب القدماء من ذكرهم الألف بين حروف الحلق: فسيبويه يقول: وللحروف العربية ستة عشر مخرجا، فللحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجا الهمزة والألف والهاء، فيعد الألف من حروف الحلق(٣) وكذلك ابن جنى يقول ثلاثة منها في الحلق، فأولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء هكذا يقول سيبويه(٤).

ويستطرد الدكتور هلال قائلا إنه «يمكن تخريج كلام هذين العالمين الجليلين على أنهما ذكرا الألف في حروف الحلق، لا لأن مخرجها منه، بل تفسيرا للمقصود من كلمة (الهمزة) التي - فيما يبدو - كانت مصطلحا صوتيا غير مألوف في تلك الأيام، أو حديث العهد بين الدارسين، فاقتضى توضيح صوت الهمزة ذكر مرادف له أكثر شهرة

(١) القراءات القرآنية / ٢٣.
(٢) أصوات اللغة العربية/ ٨٦.
(٣) كتاب سيبويه/ ٢/ ٤٠٥
(٤) سر الصناعة / ١/ ٥٢.

وألفة، وهو كلمة (الألف)[1].

ويؤيد ما ذهب إليه الباحث السابق أنى وجدت المتأخرين حين وضحت لديهم هذه الحقيقة، أنفوا من هذا الخلط وابتعدوا عنه، فلا نجد في كتبهم إشارة للألف بين أصوات الحلق، ويتضح ذلك عند ابن الجزري في كتابه النشر، فإنه ينص على أن حروف الحلق الستة هي (ءهـ - ع ح - غ خ) ولا يذكر بينها الألف[2] كما لم يعدها الدكتور أنيس ضمن حروف الحلق حين شرع في كتابه الحديث عنها[3].

ومما يدعو الدارس إلى الاعتقاد بالتفرقة بينهما، تفريق القدماء بين الهمزة والألف الساكنة، فابن جنى يقول في معرض رده على المبرد بأن الهمزة هي الألف، إن لكل من الهمزة والألف وجودا في اللغة تبعا للفظ والنطق، وعدم الثبات على صورة واحدة، فالهمزة تعد من الحروف الهجائية «لأن جميع هذه الحروف إنما وجب اثباتها واعتدادها لما كانت موجودة في اللفظ الذي هو قبل الخط، والهمزة أيضا موجودة في اللفظ كالهاء والقاف وغيرها فسبيلها أن تعتد حرفا كغيرها، فأما انقلابها في بعض أحوالها لعارض يعرض لها من تخفيف أو بدل، فلا يخرجها من كونها حرفا، وانقلابها أول دليل على كونها حرفا، ألا ترى أن الألف

(١) أصوات اللغة العربية / ٨٦

(٢) النشر في القراءات العشر/ ١/ ١٩٦.

(٣) الأصوات اللغوية/ ٨٤

والواو والياء، والتاء والهاء والنون وغيرهن قد يقلبن في بعض الأحوال، ولا يخرجهن ذلك من أن يعتددن حروفا، وهذا أمر واضح غير مشكل[1] كما أكد ابن جنى أن حرف المد (الألف) ثابت بين حروف الهجاء، وذلك واضح من الوضع الهجائي النطقي، فهو صوت ساكن، وقد حاول واضعو الحروف الهجائية تمثله للناطقين، ومن ثم فإن ابن جنى يحذرنا من أن نقول «لام ألف» كما يقول المعلمون بل يجب أن نقول «لا» فقط[2] وهذا أيضا نوع من الخلط رد عليه ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة[3] والصبان في حاشيته على الأشموني[4] والتفتازاني في حاشية الكشاف[5].

ويتشكك الدكتور هلال في تفسير ذكر الألف في حروف الحلق على النحو السابق قائلا «لأنهما لو أراداه لقالا: الهمزة وهي الألف، أو الهمزة التي هي الألف ونحو ذلك» [6]ولكنه على الرغم من تشككه يرى أن اثبات العذر لعلمائنا الأجلاء أولى.

وعلى كل حال، فللعلماء العرب القدامى عذر واضح ناشئ عن

(١) سر الصناعة / ١/ ٤٨

(٢) المصدر السابق/ ١/ ٤٨- ٤٩.

(٣) سر الفصاحة / ٢٠/ لابن سنان الخفاجي.

(٤) حاشية الصبان/ ٤/ ٢٨٧.

(٥) المصدر السابق نفسه

(٦) أصوات اللغة العربية/ ٨٧

حداثة التسمية بالهمزة لهذا الصوت الاحتباسي الحنجري، وقد كانت الألف هي الرمز الحقيقي لذلك الصوت، وهو ما أكده التفتازاني في حاشية الكشاف [1] فالهمزة والألف كلاهما من حروف المعجم التي تبلغ - كما يقول ابن جنى والكافة - تسعة وعشرين حرفا[2].

وقد اختلف اللغويون في مخرج هذا الصوت، كما اختلفوا في صفاته وتحديده، فالقدماء لهم رأيان مشهوران في الموضع الذي يخرج منه صوت الهمزة:-

الأول: رأي الخليل ومن لف لفه: فهؤلاء يرون أن مخرج هذا الصوت الهواء أو الجوف، ولم يقتصروا على ذلك، بل جمعوها مع حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء) ونسبوها جميعا إلى هذا المخرج الذي سموه الهواء تارة، والجوف تارة أخرى، يقول الخليل بن أحمد فى أثناء حديثه عن المخارج «وأربعة أحرف هوائية: الواو والياء والألف اللينة والهمزة، فأما الهمزة فسميت حرفا هوائيا، لأنها تخرج من الجوف، فلا تخرج في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف[3].

(١) حاشية الصبان/ ٤/ ٢٨٧.
(٢) سر الصناعة/ ١/ ٤٦.
(٣) العين/ ١/ ٦٤/ للخليل بن أحمد - تح -د. عبد الله درويش.

ويقصد الخليل ومن لف لفه بالهوائية: أن الهواء يخرج معها حرا طليقا دون اعتراض حال النطق بها، ولكننا في ضوء معطيات الدراسة الصوتية الحديثة نجد أن الخليل قد جانب الصواب في جملة ما قاله عن مخرج الهمزة من ناحية وضعها، وموضع نطقها، وربما ننتحل العذر له في ذلك، فقد تصورها حسب إمكاناته النطقية، مع عدم توافر الأجهزة الصوتية الحديثة الموفورة لدينا الآن.

فالهمزة ليست هوائية بالمعنى المذكور لدى الخليل ومن اقتفى أثره، لأن الهواء مع الهمزة «يقابل باعتراض تام في منطقة الحنجرة»[1] كما أنه ليس صحيحا وضع الهمزة مع حروف المد، لأنها صوائت طويلة، على حين أن الهمزة صوت صامت، وعلى ذلك يصح وضف الحروف الثلاثة (الألف والياء والواو) بالهوائية دون الهمزة.

هذا ويمكن تعليل الاضطراب الذي وقع فيه الخليل ومن سايره «بأنه حين نطق بالهمزة ليعرف طبيعتها لم ينطقها وحدها، وإنما نطقها متلوة بحركة، فبدت له كما لو كان هواؤها حرا طليقا، وفي الحقيقة فإن حرية الهواء لم تنسب إلى الهمزة نفسها، وإنما تنسب إلى الحركة التي صاحبتها»[2].

أضف إلى ذلك أن الخليل كان مضطربا في إدراك طبيعة هذا

(١، ٢) علم اللغة العام (القسم الثاني - الأصوات) / ١٤٤/ د. كمال بشر.

الصوت، وخواصه ومما يدلنا على ذلك أنه في بعض أقواله، ينسب الهمزة إلى أقصى الحلق، فيقول «وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق[1].

الثاني: رأي ابن منظور ولفيف من علماء اللغة كالأزهري وسيبويه وابن جنى، فهم يرون أن مخرج الهمزة من أقصى الحلق، وقد ورد في اللسان ما يفيد ذلك، فهو يقول «وليست الهمزة من الجوف، إنما هي حلقية في أقصى الفم»[2] أي من أقصى الحلق.

أما اللغويون المحدثون[3]:

فيرون أن مخرج الهمزة هو الحنجرة بما فيها المزمار، إذ وجدوا أنه عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقا تاما فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة، فيسمع صوت انفجاري وهو ما يعبر عنه بالهمزة.

وعلى ذلك، فما ذهب إليه سيبويه وابن جنى والأزهري وابن منظور ومن لف لفهم، من أن صوت الهمزة يخرج من أقصى الحلق، قول تعوزه الدقة والمراجعة، فلا يمكن قبوله إلا على ضرب من التوسع والمجاز، لأن الهمزة ليست حلقية كما قالوا، وإنما هي حنجرية حسب

(١) العين/ ١/ ٥٨.

(٢) اللسان/ بداية الهمزة، التهذيب/ ١٥/ ٦٨٢، الكتاب/ ٤/ ٤٣٣، سر الصناعة/ ١/ ٥٢.

(٣) الأصوات اللغوية د.أنيس/ ٨٩، الأصوات د. بشر صـ١٤٢، البحث اللغوي عند العرب/ ٥٨، علم الصوتيات د/ عبد الله ربيع وعلام صـ٢٣٧.

معطيات الدرس الصوتي الحديث، والحنجرة في موضع سابق للحلق، ولكن يمكن قبول رأيهم بافتراض واحد، وهو أنهم ربما أطلقوا الحلق على منطقة أوسع مما يطلقه المحدثون عليه، تشمل الحنجرة وغيرها، وتكون الحنجرة إذن هي المقصودة بأقصى الحلق، وهذا ما يميل إليه ثلة كبيرة من أساتذتي الكرام في القسم، وهو ما استشففته من آرائهم حول مخرج الهمزة في إحدى الحلقات العلمية (السيمنار).

وكما اختلفوا في الموضع الذي تخرج منه الهمزة، كذلك اختلفوا في صفاته، فالأقدمون قد وصفوه بأنه صوت مجهور، وجعلوه أحد الأصوات المجهورة عندهم[1] على حين أن بعض المحدثين قد وصفه بأنه صوت مهموس، يقول الدكتور أيوب «وقد عدوا الهمزة مهموسة لعدم تذبذب الأوتار الصوتية معها حال النطق بها[2] ويقول الدكتور تمام حسان «تأتي صفة الهمس في الهمزة من أن إقفال الأوتار الصوتية معها لا يسمح بوجود الجهر في النطق، فعدوها مهموسة، لعدم وجود حالة الجهر»[3].

وفي الحقيقة أن صوت الهمزة لا هو بالمجهور - كما يرى الأقدمون - ولا هو بالمهموس - كما يرى بعض المحدثين، ووصفها بهذه الصفة وصف لا غبار عليه، لأن الصوت المجهور: هو الصوت الذي يهتز

(١) الكتاب / ٤/ ٤٣٤، سر الصناعة / ١/ ٦٩ - ٧٨، اللسان / بداية باب الهمزة.

(٢) أصوات اللغة / ٨٤/ د. أيوب.

(٣) مناهج البحث في اللغة / ٩٧/ د. حسان.

الوترين الصوتيين، وأن الصوت المهموس: هو الذي لا يهز الوترين الصوتيين، ومع نطقنا بالهمزة لا يمكن وصفه بالاهتزاز أو بعدمه حتى يتسنى لنا الوصف بالجهر أو الهمس، لأنهما مغلقان، إغلاقا تاما، فلا اهتزاز، ولا مجال لخروج الهواء من بينهما ومن ثم كا وصف الهمزة بعدم الجهر والهمس وصفا سديدا(١).

إذا كانت الهمزة لا هي بالمجهورة ولا هي بالمهموسة - كما يرى بعض المحدثين - فكيف نفسر هذا الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون من علمائنا الأجلاء ممن وصفوا الهمزة بالصوت المجهور.

يرى أحد الباحثين أن هناك احتمالين لوصفهم الهمزة بالجهر هما(٢):-

١- لعلهم وصفوا الهمزة المتبوعة بحركة، فأحسوا الجهر بسبب وجود الحركة، إذ الحركات العربية كلها عادة مجهورة.

٢- لعلهم كانوا يصفون الهمزة المخففة (وهي ما تسمى همزة بين بين) وفي نطق الهمزة المسهلة لا تقفل الأوتار الصوتية إقفالا تاما (بخلاف حال النطق في الهمزة المحققة) بل يكون إقفالا تقريبيا، وحينئذ يحدث الجهر حال النطق، غير أن المجهور هنا ليس الهمزة، أو الوقفة الحنجرية ولكنه شيء أشبه بأصوات العلة.

(١) علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) / ١٧١/ د. السعران، الأصوات/ ١٤٣/ د. بشر.
(٢) دراسات في علم اللغة/ ١١٥- ١١٦/ د. بشر.

ويختم الحديث التاريخي والصوتي عن الهمزة، بكيفية تكوينها فأقول: يتكون هذا الصوت باندفاع الهواء الخارج من الرئتين عبر القصبة الهوائية، حتى إذا وصل إلى الحنجرة - وهي موطن خروجه - تسد فتحة المزمار الموجودة بين الوترين الصوتيين، وذلك بانطباق هذين الوترين انطباقا تاما فلا يسمح للهواء بالمرور ومن ثم وصف بالشدة أو الانفجارية ثم تنفرج فتحة المزمار فيخرج الهواء فجأة وبشدة محدثا صوتا انفجاريا هو صوت الهمزة، ونلحظ أن اللسان حال النطق به لا يرتفع إلى أعلى، ولا يتقعر من وسطه بل يكون مسترخيا ومن ثم وصف بالمستفل والمنفتح، ولما لم يكن أحد الأصوات الخفيفة المعول عليها في تمييز العربي من غير العربي عد هذا الصوت مصمتا.

فالهمزة إذا صوت شديد أو انفجاري، حنجري أو مزماري، لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، مستفل، منفتح، مصمت هذا الوصف العلمي للهمزة يميزها تماما من الألف بالاستعمال المألوف لدينا، فالألف صوت انطلاقي مجهور على نقيض الهمزة تماما.

***

المبحث الأول

الهمزة الأصلية (١)

أدرك إمام النحاة سيبوية صعوبة النطق بصوت الهمزة فقال «واعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا(٢) من لم يخففها (٣)لأنه بعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا فثقل عليهم ذلك لأنه كالتهوع»(٤).

ونظرا لهذه الصعوبة في النطق، ورد في الهمزة ثلاث صور من الأداء في تراثنا العربي، أجملها سيبويه في قوله «اعلم أن الهمزة تكون فيها ثلاثة أشياء: التحقيق، والتخفيف، والبدل»(٥).

وفي هذا المقام سيتناول البحث كل صورة منها على حدة بالتحليل والدراسة:-

النوع الأول: تحقيق الهمزة

ويتضمن الحديث عن تحقيق الهمزة صورتين:

---

(١) يراجع ما قيل بشأنها في حاشية ص ٢ من المبحث.

(٢) يقصد الحذف الذي تحدث عنه في نص سابق لهذا النص، وسيأتي ضمن النصوص التي سنتناولها.

(٣) أي يجعلها (بين بين).

(٤) الكتاب/ ٣/ ٥٤٨.

(٥) المصدر السابق/ ٣/ ٥٤١.

١) الهمزة المفردة:

وفي هذا المضمار يقول سيبويه «فالتحقيق: قولك: قرأت، ورأس، وسأل، ولؤم، وبئس، وأشباه ذلك»(١) يقول أيضا «وحدثني أبو الخطاب أنه سمع من يقول : قد أرآهم: يجئ بالفعل من رأيت على الأصل من العرب الموثوق بهم "(٢).

فتحقيق الهمزة ـ كما هو معلوم لدى أهل الأداء ـ هو إعطاؤها حقها ومستحقها من الأداء، وقد عزا كثير من العلماء تحقيق الهمزة إلى تميم(٣) يقول عيسى بن عمر «ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر (٤)كما ورد النص على بعض القبائل فى كلام أبى زيد «أهل الحجاز وهذيل، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون...»(٥) وهناك قبائل أخرى لم يشر إليها، منها: كنانة، وثقيف، وهوازن، وغيرها .

ويعزوها أبو حيان إلى« تيم الرباب»(٦) وابن يعيش إلى «قيس »(٧).

ويبدو لى أن صوت الهمزة ـ رغم ما يحتاجه أداؤه من مجهود عضلى

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٤١ .
(٢) المصدر السابق / ٥٤٦.
(٣) النوادر لأبى زايد ص ٥٩٦، البحر المحيط ١/ ٢٠٤ المزهر للسيوطى ٢/ ٢٧٦.
(٤) اللسان / مادة (هـ.م.ز).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) البحر الحيط /٨/ ٥١٢. لأبى حيان.
(٧) شرح المفصل /٩/ ١٠٧.

ـ يساعد تلك القبائل البدوية على عملية الأداء لأنه يعينها على إبراز مقاطعها، وإذا اعترض معترض فقال : إن التحقيق يتنافى مع الطبيعة البدوية التى تميل إلى السرعة فى النطق، وتلمس أيسر السبل إلى هذه السرعة (١)فإننا نقول: إن تحقيق الهمزة كان فى لسان هذه القبائل البدوية، الخاصة التى تخفف من عيب هذه السرعة أى أن الناطق البدوى تعود النبر فى موضع الهمزة، فيما يقابل موقعها فى الكلمات الخالية منها وهى عادة أملتها ضرورة انتظام الإيقاع النطقى، كما حتمتها ضرورة الإبانة عما يريد نطقه لمجموعة من المقاطع المتتابعة السريعة الانطلاق على لسانه، فموقع النبر فى نطقه، كان دائما أبرز المقاطع، وهو ما كان يمنحه كل اهتمامه وضغطه وبناء على ماذكر فإن التحقيق لا يعوق سرعة الأداء، بل قد يكون من الوسائل المؤدية إليها، لهذا حرص البدوى عليه.

وجدير بالذكر فى هذا الموطن أن التحقيق عند القبائل البدوية فى وسط الجزيرة وشرقيها لم يكن أمرا مطردا فقد روى أن بعضا من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون فى « رأس، بئر، لؤم »على الترتيب « راس، بير، لوم » : كما تنطقها القبائل الحجازية(٢)وهذه الرواية وغيرها تؤكد حقيقة مهمة وهى أن القوانين التى تخضع لها اللهجات العربية ليست كالقوانين الطبيعية فى

(١) فى اللهجات العربية / ١٣٣/ د. أنيس.
(٢) في اللهجات العربية / ٧٦/ د. أنيس.

الكون، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها، بل يكتفى الباحث اللغوى حين يحكم على صفات لهجة من اللهجات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها.

٢- الهمزتان المتجاورتان:

وفي هذا الموطن يتحدث سيبويه عن الهمزتين المتجاورتين إذا التقيا في كلمة واحدة أو في كلمتين، فيقول «وأعلم أن الهمزتين إذا التقتا في كلمة واحدة، لم يكن بد من إبدال الآخرة، ولا تخفف، لأنهما إذا كانتا في حرف واحد، لزم التقاء الهمزتين الحرف... فمن ذلك قولك فى فاعل من «جئت، جايء، أبدلت مكانها الياء، لأن ما قبلها مكسور فأبدلت مكانها الحرف الذي منه الحركة التي قبلها»(١).

فالعرب - كما يرى سيبويه - تتفق في إحلال صوت محل الهمزة الثانية من الهمزتين المتجاورتين في كلمة واحدة، نحو قولهم: آدم في أأدم، أبدلوا مكانها الألف، لأن الهمزة الثانية وقعت ساكنة وقبلها مفتوح، ولكن قراء الكوفة وابن عامر قد حققوا الهمزتين(٢) في قوله تعالى «... فقاتلوا أئمة الكفر...»(٣) وقد اعتبر ابن جنى ما جاء من هذا الباب كله شاذا، وأفرد له بابا في كتابه الخصائص، أسماه «باب في شواذ

(١) الكتاب / ٣/ ٥٥١

(٢) البحر المحيط / ٥/ ١٥

(٣) سورة التوبة / الآية / ١٢.

الهمزة»(١) وفي هذا الموطن جعل من شاذ الهمزة في هذا الباب - عند البصريين - قراءة الكسائي (أئمة) بالتحقيق فيهما، قال «فالهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة إلا أن تكون عينين نحو: سأل، سأر، جأر...»(٢).

والواضح من هذا الأمثلة أن مذهب البصريين، هو إبدال إحدى الهمزتين في كلمة، أو تخفيفها على ما سيأتي في قواعد التخفيف. وأن البقاء على الهمز مع وجود موجب الإبدال شاذ. فالوجه عند ابن جنى قلب الثانية إلى حرف لين.

هذا عن التقاء الهمزتين المتجاورتين في كلمة واحدة، أذا التقتا في كلمتين، يقول سيبويه «واعلم أن الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة، فإن أهل التحقيق يخففون إحداهما، ويستثقلون تحقيقهما، لما ذكرت لك(٣) كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة، فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الآخرة، وهو قول أبي عمرو، وذلك قولك: فقد

(١) الخصائص / ٣/ ١٤٣

(٢) المصدر السابق / ٣/ ١٤٣

(٣) يشير إلى قوله الآنف الذكر، وهو «وأعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا من لم يخففها، لأنه بعد مخرجها، لأنه بعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر، تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا، فثقل عليهم ذلك، لأنه كالتهوع.. الكتاب/ ٣/ ٥٤٨.

جا أشراطها [1] و «يا زكريا إنا نبشرك»[2] ومنهم من يحقق الأولى وخفف الآخرة، سمعنا ذلك من العرب، وهو قولك: «.. فقد جاء اشراطها..» و«يا زكرياء انا...»[3].

كما تحدث سيبويه عن الهمزتين المتجاورتين في كلمتين وإحداهما ألف الاستفهام فيقول «ومن العرب ناس يدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفا إذا التقتا، وذلك أنهم كرهوا التقاء همزتين، ففصلوا، كما قالوا: (اخشينان) ففصلوا بالألف كراهية التقاء هذه الحروف المضارعة، قال ذو الرمة[4]:

فياظبية الوعساء بين جلاجل ∴ وبين النقا أأنت أم أم سالم

فهؤلاء أهل التحقيق... ومنهم من يقول: إن بني تميم هم الذين يدخلون بين الهمزة وألف الاستفهام ألفا»[5].

فسيبويه في النصين السابقين، يذكر لأهل التحقيق مذهبين في الهمزتين المتجاورتين في كلمتين هما:

الأول: تخفيف إحداهما، إما الأولى نحو قوله تعالى «فقد جا أشراطها»

(١) سورة محمد/ الآية/ ١٨.
(٢) سورة مريم/ الآية/ ٧.
(٣) الكتاب / ٣/ ٥٤٨-٥٤٩.
(٤) البيت من الطويل وقد ورد بهذه الرواية في المقتضب / ١/ ١٦٣/ للمبرد - تح - عضيمه وورد في الأمالي/ ١/ ٣٢١/ لابن الشجري برواية «هياطية» وورد في الخصائص / ٢/ ٤٥٨/ لابن جنى برواية «أيا ظبية...» والشاهد في قوله «أأنت» حيث أقحم ألفا بين الهمزتين ليحققهما.
(٥) الكتاب / ٣/ ٥٥١.

أو الثانية نحو قوله تعالى أيضاً «فقد جاء اشراطها» فبدلا من أن يوالوا بين توترين، والوابين توتر وطول، وهو اتجاه منهم إلى التماس الرقة في النطق، إلى جانب تحقيقهم لخاصتهم النبرية[1] فالوجه هنا قلب الثانية إلى حرف لين.

الثاني: إذا كانت إحدى الهمزتين همزة استفهام، أقحموا ألفا بينهما، وذلك حرصا منهم على تحقيق الهمزتين وقد خصت تميم[2] دون سائر المحققين بهذا العمل.

وإذا صحت ملاحظة سيبويه من أن الذين يضيفون ألفا بين الهمزتين إنما هم بنو تميم، كان تخفيف الهمزة إلى جانب المد جمعا بين ظاهرتين في لهجتين: ظاهرة اشتهرت بها لهجة الحجازيين، وهي التخفيف، وأخرى اشتهرت بها لهجة تميم، وهي زيادة الألف بين الهمزتين.

على أن مقتضى حديث سيبويه في موقف كل من الحجازيين والتميميين من التقاء الهمزتين في مثل (أئمة) أن التخفيف كان سنة تميم لهمزة واحدة منهما، وأن تخفيف الحجازيين كان لكليهما جميعا.

وخلاصة القول في توالي الهمزتين أن بعض العرب - من تميم دون شك - قد حققهما، كيفما كانا، وعليه قراءة حفص المشهورة، وبعضهم - وهم من تميم أيضا - حققوا واحدة، وقد يطولون حركتها، وخففوا

(١) القراءات القرآنية / ١٨٠/ د. شاهين
(٢) معاني القرآن / ٣/ ١٧٣/ للفراء.

الأخرى، وهو ما ذكره ابن جني مذهبا للبصريين، وبعضهم - وهم أهل الحجار- خففوا الاثنتين، وبعض نادر منهم «أبرز صورة الانزلاق عند اختلاف حركتيهما فتأكد وجود المزدوج في مثل ما ذكرته بعض المصاحف من قراءة «أيلها مع الله» وقراءة الأعمش «آينكم» ويلاحظ وجود طول في حركة الهمزة الأولى، مما يشعر بقرب هؤلاء من تقاليد تميم»، وربما كان بطنا من بطونهم أيضا(١).

هذه هي الأحكام التي عرضها سيبويه للهمزة الأصلية والمحققة، وقد رأينا فيها حرص القبائل البدوية على صوت الهمزة، وإليهم نستطيع أن نعزو قول سيبويه «وبعض العرب يقول: أوكل(٢) فيتم (٣)وقوله «وقال بعضهم: أومره(٤) إذا حققت الهمزة الأولى وخففت الثانية فى كل من المثالين.

النوع الثاني: تخفيف الهمزة:

أولاً: الهمزة المفردة:

يعد تخفيف الهمزة عند بعض القبائل العربية هروبا من بعض الكراهات النطقية لديهم، وتحقيقا لطريقة مفضله عندهم في النطق،

(١) القراءات القرآنية / ١٨٠

(٢) ذكرت هذه الكلمات (أوكل) في المصادر التالية دون نسبة لأحد: المقتضب/ ٢/ ٢٧/ للمبرد، اللسان/ مادة) (أكل)، الجامع لأحكام القرآن / ١/ ٣٢٠/ للقرطبي، المحكم/ ٥/ ١٤٢/ لابن سيده.

(٣) الكتاب / ٤/ ٢١٩.

(٤) المصدر السابق / ٤/ ١١١.

يقول سيبويه في شأن هذا النوع « أمَّا التخفيف فتصير الهمزة فيه بين بين وتبدل وتحذف»(١) وبقوله هذا يضعنا إمام النحاة أمام ثلاث صور للتخفيف وهي:-

(أ) جعل الهمزة بين بين:-

وبحسبنا أن ننقل أولا وصف سيبويه لهذه الصورة من صور تخفيف الهمزة ثم نعقبه بوصف ابن جنى لها، يقول سيبويه «اعلم أن كل همزة مفتوحة كانت قبلها فتحة، فإنك تجعلها إذا أردت تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة، وتكون بزنتها محققة، غير أنك تضعف الصوت ولا تتمه وتخفي، لأنك تقربها من هذه الألف، ودلك قولك (سال) في لغة أهل الحجاز، إذا لم تحقق، كما يحقق بنو تميم(٢) وهذا اللون من التخفيف للهمرة هو ما وصفه ابن جني بقوله «وأما الهمزة المخففة فهي التي تسمى (همزة بين بين) ومعنى قول سيبويه (بين بين) أي هي بين الهمزة من الحرف الذي منه حركتها، إن كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف، وإن كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة، وهي مع ما ذكرنا من أمرها في ضعفها وقله تمكنها بزنة المحققة «ثم قال» ويدلك على أنها وإن كانت قد قربت من الساكن، فإنها في الحقيقة

(١) المصدر السابق / ٣/ ٥٤١

(٣) المصدر السابق/ ٣/ ٥٤٢.

متحركة، أنك تعتدها في وزن العروض حرفا متحركا، وذلك نحو قول كثير عزة:

أإن زم أجمل وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

ألا ترى أن وزن قولك «أإن زم» «فعولن» فالهمزة إذن مقابلة لعين «فعولن» وهي متحركة كما ترى(١).

فالهمزة «البين بين» هي في رأي سيبويه وابن جنى، صوت ساكن، ولكنه ضعيف غير متمكن، وهي برغم هذا تقع موقع المحققة، وهي بزنتها، ويطلقون عليها أيضا: الهمزة المسهلة، والملينة، والمقصود في ذلك دائما تخفيف نطقها، ومعنى ذلك أن قولهم «بين بين» يعني في الواقع سقوط الهمزة أساسا، واتصال الحركتين قبلها وبعدها مباشرة.

وفي هذا النص يرى سيبويه أن الهمزة إذا وقعت مفتوحة وفتح ما قبلها، فطريق تخفيفها أن نجعلها (بين بين) أي بين الهمزة والحرف الذي من جنس حركتها، وبذلك يتم تضعيف الصوت دون إتمام مع مراعاة إخفائه. ووافق بعض القراء نظرة سيبويه، فقد قرأ نافع وابن عامر(٢) قوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع»(٣) سال بألف.

وقد خرج بعض العلماء هذا التسهيل في القراءة القرآنية على أوجه، وهاهى تخريجاتهم:-

(١) سر صناعة الإعراب/ ١/ ٥٣ - ٥٤.
(٢) البحر المحيط / ٨/ ٣٣٢
(٣) سورة المعارج/ الآية/ ١.

الزمخشري: يقول في الكشاف «قرىء (سال سائل) على وجهين»:-

إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش، يقولون سلت تسال، وهما يتسايلان، أو أن يكون من السيلان، ويؤيده قراءة ابن عباس (سال يسيل) والسيل مصدر في معنى السائل كالفوز بمعنى الفائز(١).

أبو علي الفارسي: يقول في «سألت» لغتين: سألت أسأل، العين همزة، وهي اللغة الفاشية الكثيرة، وسلت أسال، وعليه قول الشاعر:-

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سألت ولم تصب(٢)

الطبرسي:

يقول في مجمع البيان نقلا عن أبي علي الفارسي «من قرأ - سال - جعل الألف منقلبة على الواو مثل: قال وخاف، وحكى أبو عثمان عن أبي زيد أنه سمع من يقول: هما يتساولان، فمن قال (سال) كان على هذه اللغة، ومن قرأ (سأل) جعل الهمزة عين الفعل، فإن حقق قال: سأل وإن خفف جعلها بين الهمزة والألف(٣).

ابن يعيش: يقول في شرح المفصل بالتسوية بين الهمز المنفصل والمتصل، ويجعل ابن يعيش المنفصل في ذلك كالمتصل، فإذا كانت الهمزة مفتوحة وقبلها فتحة جعلها متوسطة في إخراجها بين الهمزة

(١) الكشاف / ٣/ ٢٦٧.
(٢) الحجة في علل القراءات السبع / ٢/ ١٦٩/ لأبي علي الفارسى - تح - علي النجدي ناصف.
(٣) مجمع البيان/ ١٠/ ٣٥١/ للطبري

والألف، لأن الفتحة من الألف، وذلك في: سال، والمنفصل: نحو: قال: أحمد(١).

ومن العرض السابق يتضح لنا تقارب آراء اللغويين والقراء، فهم إذا أرادوا التخفيف، يقولون بتسهيل الهمزة، وإن اختلفوا في كيفية التسهيل.

ويواصل سيبويه حديثه عن أحوال التخفيف في الهمزة (بين بين) فيقول «وإذا كانت الهمزة منكرة وقبلها فتحة، صارت بين الهمزة والياء الساكنة كما كانت المفتوحة بين الهمزة والألف الساكنة، ألا ترى أنك لا تتم ههنا وتضعف، لأنك تقربها من الساكن، ولولا ذلك لم يدخل الحرف وهن، وذلك قولك: يئس، وسئم، «وإذ قال ابراهيم» وكذلك أشباه هذا.

ويقول أيضا «وإذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها فتحة، صارت بين الهمزة والواو الساكنة، والمضمومة قصتها، وقصة الواو، قصة المكسورة والياء، فكل همزة تقرب من الحرف الذي حركتها منه، فإنما جعلت هذه الحروف بين بين، لم تجعل ألفات ولا ياءات ولا واوات، لأن أصلها الهمز، فكرهوا أن يخففوا على غير ذلك، فتحول عن بابها، فجعلوها بين بين، ليعلموا أن أصلها عندهم الهمز»(٢).

(١) شرح المفصل / ٩/ ١٠٧/ لابن يعيش
(٢) الكتاب / ٣/ ٥٤٢.

«وإذا كانت الهمزة مكسورة، وقبلها كسرة أو ضمة، فهذا أمرها(١) أيضا، وذلك قولك (من عند إبلك) (ومرتع إبلك).

«وإذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة، فإنك تصيرها بين بين، وذلك قولك: هذا درهم أختك، ومن عند أمك(٢).

في النصوص السابقة أشار سيبويه إلى المواطن التي يجوز فيها تخفيف الهمزة على هيئة (بين بين) نلخصها فيما يلي:-

١- الهمزة المفتوحة أو المكسورة أو المضمومة إذا كانت قبلها فتحة نحو: سأل - يئس - قرأت كتاب أختك.

٢- الهمزة المكسورة أو المضمومة، إذا كان قبلها كسرة أو ضمة نحوك من عند إبلك - مرتع إبلك - من عند أختك - هذا درهم أختك.

وهذه الصورة من التخفيف نسبها سيبويه لأهل الحجاز (٣)ولعل مافي نطق الحجازيين من تؤدة وتأن، أغناهم عن الهمزة كوسيلة للنبر، فاكتفوا بقدر يسير من الضغط في موقعه، أو ما يسمى بـ(نبر الطول)(٤).

(١) أي تصير بين الهمزة والياء إذا كانت الهمزة مكسورة، وبين الهمزة والواو إذا كانت الهمزة مضمومة.
(٢) الكتاب/ ٣/ ٥٤٢.
(٣) الكشف / ١/ ٨١/ لمكي بن أبي طالب، شرح المفصل / ٩/ ١٠٧. البرهان في علوم القرآن / ١/ ٢٨٤/ للزركشي.
(٤) القراءات القرآنية/ ١٠٥.

(ب) إحلال ياء أو واو أو ألف محل الهمزة للتخفيف:

وفي هذه الصورة يقول سيبويه «واعلم أن كل همزة كانت مفتوحة، وكان قبلها حرف مكسور، فإنك تبدل مكانها ياء في التخفيف، وذلك قولك: «في (المئر) (مير)... ومن ذلك (من غلام يبيك) إذا أردت (من غلام أبيك).

وإن كانت الهمزة مفتوحة وقبلها ضمة، وأردت أن تخفف، أبدلت مكانها واوا، كما أبدلت مكانها ياء، حيث كان ما قبلها مكسورا، وذلك قولك في التؤدة - تودة - وفي (الجؤن) (جون) وتقول (غلام وبيك) إذا أردت (غلام أبيك).

«وإنما منعك أن تجعل الهمزة ههنا (بين بين) من قبل أنها مفتوحة، فلم تستطع أن تنحو نحو الألف وقبلها كسرة أو ضمة، كما أن الألف لا يكون ما قبلها مكسورا ولا مضموما، فكذلك لم يجيء ما يقرب منها في هذا الحال، ولم يحذفوا الهمزة، إذ كانت لا تحذف وما قبلها متحرك».

«وإذا كانت الهمزة ساكنة وقبلها فتحة، فأردت أن تخفف أبدلت مكانها ألفا، وذلك قولك: رأس وبأس، وقرأت: راس، وباس، وقرات».

«وإذا كان من قبلها مضموما فأردت أن تخفف أبدلت مكانها واوا وذلك قولك في: الجؤنة، والبؤس والمؤمن: الجونة، والبوس، والمومن».

«وإذا كان ما قبلها مكسورا أبدلت مكانها ياء كما أبدلت مكانها واوا

إذا كان ما قبلها مضموما، وألفا إذا كان ما قبلها مفتوحا، وذلك الذئب والمئرة، ذيب وميرة، فإنما تبدأ مكان كل همزة ساكنة، الحرف الذي منه الحركة التي قبلها، لأنه شيء أقرب منه، ولا أولى به منها».

«وإنما يمنعك أن تجعل هذه السواكن (بين بين) أنها حروف ميتة، وقد بلغت غاية ليس بعدها تضعيف... ولا تحذف، لأنه لم يجيء أمر تحذف له السواكن، فألزموا البدل كما ألزموا المفتوح الذي قبله كسرة أو ضمة البدل[١].

وفي النصوص السابقة أشار سيبويه إلى المواضع التي تخفف فيها الهمزة بإحلال واو أو ياء أو ألف محلها نلخصها فيما يلي:-

١- إذا سكنت الهمزة وتحرك ما قبلها حل محلها صوت من جنس حركة ما قبلها نحو (جونة) في (جؤنة) و (راس في رأس) و (ذيب في ذئب).

٢- إذا انفتحت الهمزة وضم ما قبلها أو كسر، حل محلها صوت من جنس حركة ما قبلها نحو: (جون) في (جؤن) و(ميرة) في (مئرة).

وقد نسب تخفيف الهمزة هذا إلى أهل الحجاز[٢] وقريش[٣] وهذيل[٤] وبني عجلان[٥] من قيس، وبني عاضرة[٦]:

(١) الكتاب / ٣/ ٥٤٣ - ٥٤٤

(٢) الكشف/ ١/ ٨١/ لمكي بن أبي طالب

(٣) البحر المحيط/ ٧/ ٢١١ معاني القرآن/ ٢/ ٢٠٤/ للفراء

(٤) اللسان/ بداية باب الهمزة، المخصص / ٥/ ٥٤

(٥) اللسان/ بداية باب الهمزة.

(٦) النوادر في اللغة / ٥٢١/ لأبي زيد الأنصاري.

وقريش - كما هو معلوم - من أهل الحجاز، وكذلك هذيل وقيس فلكل منهما فروع حجازية. أما بنو غاضرة، فنرجع فيهم مقالة الدكتور الجندي من أنهم غاضرة الحجاز(١) ونستبعد كونها غاضرة أسد، نظرا لشيوع هذا التخفيف في البيئات الحجازية، أو بمعنى أدق في البيئات الحضرية، التي يغنيها ما في نطقها من تؤدة وتأن، عن البحث عن وسيلة لإبراز نبرها.

(ج) حذف الهمزة:

وأما الصورة الثالثة من صور التخفيف فيقول عنها سيبويه «واعلم أن كل همزة متحركة كان قبلها حرف ساكن، فأردت أن تخفف حذفتها، وألقيت حركتها على الساكن الذي قبلها، وذلك قولك (من بوك) (ومن ملك) (وكم بلك) إذا أردت أن تخفف الهمزة في الأب والأم والإبل».

«ومثل ذلك (أحمر) إذا أردت أن تخفف ألف (الأحمر) ومثله قولك في المرأة (المرة) والكمأة (الكمة)، وقد قالوا: الكماة والمراة ومثله قليل».

«وقد قال الذين يخففون «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الحب في السماوات...»(٢) حدثنا بذلك عيسى، وإنما حذفت الهمزة ههنا، لأنك لم ترد أن تتم، وأردت إخفاء الصوت، فلم يكن ليلتقي ساكن، وحرف هذه قصته، كما لم يكن ليلتقي ساكنان. ألا ترى أن الهمزة إذا كانت

(١) اللهجات العربية في التراث / ١/ ٣٣٧/ د. الجندي «توجد غاضرة في كل من خزاعة وثقيف وهوازن وأسد (النوادر في اللغة / ٥٢١ - ٥٢٢).

(٢) سورة النمل / ٢٥/ وهي قراءة أبي وعيسى... البحر المحيط/ ٧/ ٦٩.

مبتدأة محققة في كل لغة، فلا تبتدئ بحرف قد أوهنته، لأنه بمنزلة الساكن كما لا تبتدئ بساكن، وذلك قولك (أمر) فكما لم يجز أن تبتدأ، فكذلك لم يجز أن تكون بعد ساكن، ولم يبدلوا لأنهم كرهوا أن يدخلوها في بنات الياء والواو اللتين هما لامان، فإنما تحتمل الهمزة أن تكون (بين بين) في موضع لو كان مكانها ساكن جاز، إلا الألف وحدها. فإنه يجوز ذلك بعدها فمجازذلك فيها».

«ومما حذف في التخفيف لأن ما قبله ساكن قوله: أرى، وترى، ويرى ونرى...»

«وإذا أردت أن تخفف همزة (أرأوه) قلت: روه، تلقى حركة الهمزة على الساكن، وتلقى ألف الوصل، لأنك استغنيت حين حركت الذي بعدها... ويدلك على ذلك: (ر، ذاك، وسل) خففوا (ارأ، واسأل).

«وإذا كانت الهمزة المتحركة بعد ألف لم تحذف...»

«والألف تحتمل أن يكون الحرف المهموز بعدها بين بين لأنها مد ... ذلك قولك في (هباءة: هباأة) وفي (مسائل - مايسل) وفي (جزاء أمه: جزاؤ امه»(١).

ففي النصوص السابقة، تحدث سيبويه عن الهمزة التي تحذف للتخفيف، وهي كل همزة متحركة سكن ما قبلها بشرط ألا يكون ألفا، فعندها تخفف على هيئة بين بين، وقد نسبت هذه الصورة من صور التصرف في الهمزة بالتخفيف إلى أهل الحجاز أيضا(٢).

(١) الكتاب/ ٣/ ٥٤٥- ٥٤٧.

(٢) البحر المحيط / ٣/ ٢٣٦، اللسان / مادة (قرأ) تاج العروس/ ١٠/ ١٤١.

ويذكر ابن يعيش - مؤكدا مذهب سيبويه - أن قوما من العرب يبدلون من هذه الهمزات التي تكون (بين بين) حروف لين، فيبدلون من المفتوحة المفتوح ما قبلها ألفا، فيقولون: في سأل: سال، وفي قرأ: قرا، وفي منسأة: منساة، ومن المضمومة المضموم ما قبلها واوا، ومن المكسورة المكسور ما قبلها ياء، وذلك شاذ ليس بمطرد، ويقول ابن يعيش أيضا حكاية عن الكسائي والفراء إن من العرب من يقلب الهمزة لاما في مثل: الأحمر واللحمر، والأرض: واللرض ثم يقول: وكأن أهل هذه اللغة نكبوا عن تحريك هذه اللام فقلبوا الهمزة من جنس اللام(٥٦).

وهكذا نجد أ تخفيف الهمزة بمختلف صوره، ينسب إلى أهل الحجاز، في مقابلة التحقيق عند بني تميم، ولعل ما في نطقهم - أي الحجازيين من تؤدة وتأن، يساعدهم على تمييز مقاطع كلامهم، بلإضافة إلى حياة الحضر وما فيها من الترف والنعيم والدعة، أغناهم عن إبراز صوت الهمزة، كوسيلة مساعدة أحيانا على إبراز المقاطع، على حين احتاجها البدو في نبرهم، نظرا لسرعة أدائهم، والتماسهم أن يضغطوا بعض المقاطع بصورة واضحة، حين يحسون بضرورة هذا الضغط لتقليل من عيب السرعة في الأداء(٢).

ثانيا: الهمزتان المتجاورتان:

وكما خفف أهل البيئة الحجازية الهمزة المفردة، كذلك خففوا

(١) شرح المفصل/ ٩/ ١١٨/ لابن يعيش.
(٢) في اللهجات العربية / ١٣٠ - ١٣١.

الهمزتين المتجاورتين فإذا كانوا قد خففوا المفردة فمن باب أولى تخفيفهم للمتجاورتين.

وفي تخفيف الهمزتين المتجاورتين يقول سيبويه «وأما أهل الحجاز: فيقولون: قرا آية، لأن أهل الحجاز يخففونهما جميعا، يجعلون همزة (اقرأ) ألفا ساكنة، ويخففون همزة آية... وتقول (أقرى باك السلام) بلغة الحجاز لأنهم يخففونهما»(١).

ويقول أيضا «وأما أهل الحجاز فيخففون الهمزتين، لأنه لو لم تكون إلا واحدة لخففت...»(٢).

وكذلك يقول «وأما أهل الحجاز فمنهم من يقول (آإنك) و (آأنت) وهي التي يختار أبو عمرو، وذلك لأنهم يخففون الهمزة، كما يخفف بنو تميم في اجتماع الهمزتين، فكرهوا التقاء الهمزة، والذي هو (بين بين) فأدخلوا الألف، كما أدخله بنو تميم في التحقيق»(٣).

النوع الثالث: إحلال صوت محل الهمزة لغير التخفيف:

وهذا النوع يندرج تحته صورتان:-

الأولى: إحلال الهاء محل الهمزة:-

وعن هذه الصورة يقول سيبويه «وقد أبدلت - أي الهاء - من الهمزة في هرقت وهمرت وهرحت الفرس، تريد: أرحت... ويقال: إياك وهياك»(٤).

(١)، (٢)، (٣) الكتاب / ٣/ ٥٥٠.
(٤) المرجع السابق / ٣/ ١٥٠، ٤/ ٢٣٨.

وبهذا يضعنا سيبويه أمام ظاهرتين واستعمالين عدهما من الإبدال، وهما في الواقع لهجتان: أرقت وهرقت ونحوهما.

وقد أورد ابن السكيت وابن دريد وابن يعيش هاتين اللهجتين منسوبتين إلى طيئ وأهل اليمن وبني تغلب(١) كما أوردهما بعض العلماء دون نسبة إلى أهلهما(٢).

وكما هو معلوم لدى علماء الأنساب، فإن قبيلة طيئ يمنية الأصل، نجدية المهجر، لذلك يغلب على ظني، أن هذه اللهجة يمنية الأصل حملتها طيئ معها إلى نجد، فتأثر بها بنو تغلب.

ولست أدري: لماذا قصر الرضي (٣)لهجة طيئ على قولهم (هن فعلت) دون (هرقت ونحوها)؟ وعلى هذه اللهجة قرأ أبو سوار الغنوي «هيَّاك وهيَّاك» من قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين»(٤) أما (أرقت) فهي اللهجة الشائعة عند باقي القبائل العربية التي آثرت صوت الهمزة لما فيه من شدة وانفجار يناسب أوائل الكلمات.

الثانية: إحلال ألف أو ياء أو واو محل الهمزة:-

وعن هذه الصورة الثانية يحدثنا سيبويه فيقول: «واعلم أن الهمزة التي

(١) الإبدال/ ٨٨- ٨٩، الجمهرة/ باب من اللغات من أبي لبد/ ٣/ ٢٢٢، شرح المفصل/ ١٠/ ٤٣.

(٢) المحكم/ ٦/ ٣٠٩/ لسان العرب/ ٧/ ٩٥ (هرق)، شرح الشافية/ ٣/ ٢٢٢/ الجاربردي.

(٣) شرح الشافية/ ٣/ ٢٢٢.

(٤) سورة الفاتحة/ ٥.

يحقق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل الحجاز(١) وتجعل في لغة أهل التخفيف (بين بين) تبدل مكانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحا، والياء إذا كان ما قبلها مكسورا، والواو إذا كان ما قبلها مضموما، وليس إذا كان ما قبلها مكسورا، وليس ذا بقياس متلئب، نحو ما ذكرنا(٢) وإنما يحفظ عن العرب كما يحفظ الشيء الذي تبدل التاء من واوه، نحو: (اتلجت) فلا يجعل قياسا في كل شيء من هذا الباب، وإنما هي بدل من واو (أولجت).

«فمن ذلك قولهم: منساة، وإنما أصلها (منسأة).

«وقد يجوز في ذا كله البدل حتى يكون قياسا متلئبا، إذا اضطر الشاعر...»(٣).

وقال القرشي: زيد بن عمر بن نفيل:-

سالتاني الطلاق أن رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر(٤)

(١) لعله يقصد من تبدي من أهل الحجاز كقبيلة هذيل التي انحدرت بعض فروعها ديارا وأماكن في نجد.

(٢) يعني سيبويه هنا ما حدث فيه الألف والواو والياء محل الهمزة لقصد التخفيف، وهذي لأهل الحجاز.

(٣) أسقطنا من النص بيتين أحدهما للفرزدق والآخر لحسان بن ثابت، لأن الشاهد فيهما كالشاهد في البيت التالي.

(٤) البيت من بحر الخفيف وقد ورد بهاء الوقاية في الهمع/ ٥/ ١٢٤، شرح شواهد المغني/ ٢/ ٧١٢/ السيوطي ضمن بقية أخرى في خزانة الأدب/ ٣/ ٩٢/ البغدادي

سالتاني الطلاق أن رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر

والشاهد في قوله (سالتاني) حيث أحل الشاعر الألف محل الهمزة للضرورة على خلاف أهوه أوه من أدباء والتي تحول الهمزة المفتوحة المفتوح ما قبلها من الهمزة بالألف

فهؤلاء [1] ليس من لغتهم (سلت) والا (يسال)[2].

«وبلغنا أن (سلت تسال) لغة.

«وقالوا: نبي وبرية، فألزمها أهل التحقيق[3] البدل، وليس كل شيء ونحوهما يفعل ذا، إنما يؤخذ بالسمع، وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق، يحققون (نبيء) و(بريئة) وذلك قليل رديء[4] فالبدل هنا كالبدل في (منساة) وليس بدل التخفيف، وإن كان اللفظ واحدا»[5].

وهنا ذكر سيبويه أمثلة حلت فيها الألف والياء محل الهمزة على البدل لا على التخفيف وهي (منساة - سال - نبي - برية) والقصد هنا البدل لا التخفيف كما ذكرنا آنفا، وإلا خففت الهمزة هنا على هيئة (بين بين) لأنها في (منسأة - وسأل) مفتوحة مفتوح ما قبلها، في (نبيء) متحركة مكسور ما قبلها، ونعني بأنها متحركة، أن حركتها حركة إعراب تختلف باختلاف موقعها.

(١) يعني سيبويه من تمثل بشعرهم وهم: الفرزدق، وحسان بن ثابت، وزيد بن عمر بن نفيل القرشي.

(٢) أي بإحلال الألف محل الهمزة.

(٣) ويعني بهم تميم ومن تابعهم.

(٤) وهذا يعني كما ذكرنا في ثنايا البحث أن القبائل الحجازية لم تسر على وتيرة واحدة في التخلص من الهمز بل كان منهم من يؤثرون تحقيقها، وفي المقابل القبائل التميمية لم تكن كلها تحقق الهمزة، وإنما روى عن بعضهم تخفيفها بقلبها إلى حرف لين من جنس حركة ما قبلها.

(٥) الكتاب / ٣/ ٥٥٣ - ٥٥٥.

فالأمر هنا أمر لهجات سمعت عن العرب في هذه الكلمات، وقرأ بها بعض القراء، لكنها لم تكن من الكثرة بحيث يقيس عليها النحويون، ومن ثم قال عنها سيبويه «وليس ذا بقياس متلئب»... وإنما يحفظ عن العرب، كما يحفظ الشيء الذي تبدل التاء من واوه، نحو: أتلجت..» وليست على قياس أهل التخفيف[1] فتنسب إليهم، ولا محققة على مذهب أهل التحقيق، فتكون لهم، لهذا عدها سيبويه، مذهبا ثالثا في الهمزة، يشترك فيه الطرفان - كما سيتبين لنا:-

وقد نسب اللغويون والقراء (منساة) إلى قريش[2] ونسبوا (سال) إلى قريش [3]أيضا وهذيل[4] غير أننا نستبعد نسبتها إلى قريش، ونميل إلى نسبتها إلى هذيل للأمور التالية:-

١- إنكار سيبويه أن تكون من لغة الشاعر القرشي زيد بن عمر بن نفيل.

٢- رواية سيبويه عن أهل الحجاز، جعل همزة (سأل) بين بين.

٣- إيراد كثير من اللغويين لهذه اللهجة دون نسبتها إلى قريش وكما هو معلوم لدى الدارسين في الميدان اللغوي أن للغويين ولع واهتمام

(١) ويراد بهم أهل الحجاز.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٦ الإتحاف / ٣٥٨.

(٣) الكشاف / ٢/ ٤٦٨، ٤/ ١٥٦/ للزمخشري.

(٤) تاج العروس / ٧/ ٣٦٥/ (س.ء.ل) للزبيدي.

بلهجة قريش، فلو كانت هذه اللهجة لقريش لما غاب أمرها عند بعضهم على أقل تقدير.

٤- انتشار الهذيليين في مناطق واسعة من قلب الجزيرة العربية، فجزء منها في الحجاز، وجزء على مشارف نجد، وآخر في تهامة، بخلاف القرشيين - فليس من المستبعد أن تكون هذه اللهجة سمعت من بعضهم، وأغلب الظن عندي أنه ممن كان يقيم في تهامة «لأننا نسمع آثارها في لهجة بعض التهاميين من أهالي (جيزان) إذ سمعت من بعضهم يقول (سايلته عن كذا) أي (سألته) ومنهم من يقول (سلته) أي (سألته)(٧٩).

أما (نبي وبرية) فقد نسبا إلى أهل التحقيق، ولا نظن أن أهل التحقيق خالفوا مذهبهم هنا في هذين الاستعمالين، لأننا لو نظرنا إليهما بتفحص لوجدنا أن التضعيف فيهما قد أدى الدور نفسه، وهو تقوية النبر على المقطع، وهو السبب الرئيسُ وراء حرص تلك القبائل على صوت الهمزة.

***

المبحث الثاني

الهمزة غير الأصلية (١)

ويتضمن هذا المبحث الحديث عن صورة واحدة من صور الهمزة وهي:-

إحلال الهمزة محل الواو:-

وفي هذا الصدد يقول سيبويه «والعرب تقول: تميم بن ود، وأد، يقالان جميعا(٢).

ويقول أيضا «اعلم أن هذا الواو إذا كانت مضمومة، فأنت بالخيار، إن شئت تركتها على حالها، وإن شئت أبدلت الهمزة مكانها، وذلك نحو قولهم في: ولد: وفي وجوه: أجوه».

«وإنما كرهوا الواو حيث صارت فيها ضمة، كما يكرهون الواوين، فيهمزون نحو: قؤول ومؤونة، وأما الذين لم يهمزوا، فإنهم تركوا الحرف على أصله، كما يقولون: قوول: فلا يهمزون، ومع ذلك فإن هذه الواو ضعيفة، تحذف وتبدل، فأرادوا أن يضعوا مكانها حرفا أجلد منها..»

«وقالوا: وجم: وأجم، ووناة: وأناة... فأبدلوا الهمزة لضعف الواو عوضا لما يدخلها من الحذف والبدل، وليس ذلك مطردا في المفتوحة،

(١) راجع ما قلناه بشأنها في بداية البحث صـ٢.
(٢) الكتاب / ٣/ ٤٦٤.

ولكن ناسا كثيرا يجرون الواو إذا كانت مكسورة مجرى المضمومة، فيهمزون الواو المكسورة إذا كانت أولا، كرهوا الكسرة فيها، كما استثقل في (يبجل، وسيد وأشباه ذلك).

فمن ذلك قولهم: إسادة، وإعاء(١).

ويواصل سيبويه حديثه عن هذه الصورة فيقول «فأما أفعل فنحو: «أدور، وأسواق، وأثوب، وبعض العرب يهمز لوقوع الضمة في الواو، لأنها إذا انضمت خفيت الضمة فيها كما تخفى الكسرة في الياء»(٢).

ويقول أيضا «وأما الفعول من نحو قلت مصدرا، ومن نحو سوط جمعا، فليس قبل الواو فيه كسرة فتقلبها، كما تقلبها ساكنة، فهم يدعونها على الأصل، كما يدعون (أدورا) ويهمزون كما يهمزونه، والوجهان مطردان، وكذلك فعول... وذلك نحو: غارت غوورا... و-ول وحوول، وخور وخوور، وساق وسووق. وكذلك: قالوا: القوول والمووونة والنووم والنوور، وقد همزوا، كما همزوا: أدؤر، اجتماع الواو والضم، ولأن الضم فيها أخفى(٣).

وبنظرة فاحصة دقيقة لهذه النصوص نجد أن الهمزة فيها قد حلت محل الواو في الأمثلة التالية (إعاء، أجوه، أدؤر، غؤور، فؤول) ووجود

(١) المصدر السابق / ٤/ ٣٣١.
(٢) المصدر السابق / ٤/ ٣٥١.
(٣) المصدر السابق / ٤/ ٣٣١.

الهمز هنا حتمته في بعض اللهجات وظيفة صوتية، هي «البر» مقاطع معينة في بناء الكلمة العربية(١).

وقد نسبت هذه الظاهرة إلى تميم(٢) وهذيل(٣) وأسد(٤) وعكل(٥) وغنى (٦)وجيمعها من القبائل البدوية، أو ممن لها فروع بدوية كهذيل.

وعلى هذه اللهجة قرأ أبي بن كعب «اجوههم مسودة» بألف بدل الواو ، وفى حص « وجوههم(٧) من قوله تعالى «يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة»(٨) وقرأ سعيد بن جبير وعيسى «من إعاء أخيه» بالهمز مكسورة، وفي حفص وعاء(٩) من قوله تعالى «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه»(١٠).

وقد حلت الهمزة محل الياء في قراءة العجاج التميمي وابنه رؤبة

(١) القراءات القرآنية / ١٢٢.
(٢) المزهر / ٢/ ٢٢٧، اللسان/ مادة (و.ق.ط).
(٣) الجمهرة/ مادة (ح ش و)، والشتقاق / ٢/ ٥١٣/ لابن دريد.
(٤) البحر المحيط / ٣/ ٣٩٧، ٦/ ١٦٣.
(٥) الخصائص / ٣/ ٢٠٧.
(٦) المخصص / ١٢/ ٢٠٩/ لابن سيده.
(٧) البحر المحيط / ٧/ ٤٣٧.
(٨) سورة الزمر/ ٦٠.
(٩) المحتسب ١/ ٣٤٨، البحر المحيط ٥/ ٣٣٢.
(١٠) سورة يوسف / ٧٦.

(آجـــوج)[1] من قوله تعالى «فقالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض»[2] كما حلت الهمزة أيضا محل الألف في قراءة (أيوب السختياني) «ولا الضألين» وهي في قراءة حفص «ولا الضالين»[3] من قوله تعالى «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»[4].

وقد فسرها ابن جنى هنا بأن الألف تحركت بحركة الساكن قبلها، فهمزت[5]، وفسرها هنري فليش بأنها هروب من المقطع المديد، لكراهة النطق بمصوت طويل في مقطع مقفل[6] وربما كان تفسير الدكتور شاهين أجدر بالقبول حين قال «إن النبر في لسان قبائل البادية يأخذ صورة التوتر، على حين يأخذ صورة الطول في لسان غيرهم من الحضريين، وقد اتخذ التوتر صورة الهمزة، نظرا لشدة ضغط الناطق على المقطع برغم أنه الكلمة، ولا أية صيغة من صيغها الاشتقاقية تحتوي همزة، الأمر الذي يؤكد أن رمز الهمزة هنا علامة نبر لا أكثر[7] ويذكر ابن جنى أنها لغة[8] قال أبو حيان «وعلى ما قاله أبو الفتح (إنها لغة) ينبغي أن ينقاس ذلك[9] ويذكر ابن خالويه «أن أيوب السختياني

(١) البحر المحيط / ٦/ ١٦٣.
(٢) سورة الكهف / ٩٤.
(٣) سر الصناعة / ١/ ٨٢، المحتسب / ١/ ٤٦.
(٤) سورة الفاتحة / ٧.
(٥) المحتسب / ١/ ١٢٢.
(٦) العربية الفصحى / ٧٦/ لهنري فليش - تر - د. شاهين.
(٧) القراءات القرآنية / ١٢٨.
(٨)، (٩) البحر المحيط / ١/ ٣٠.

سئل: لم همزت؟ فقال: إنّ المدة التي ملتموها أنتم لتحجزوا بها بين الساكنين هي هذه الهمزة التي همزت[1] ومثل هذا الهمز شبيه بما ورد عن العجاج من أنه كان يهمز: العالم والخاتم، والعجاج تميمي سعدي[2] وشبيه بهذا ما قاله أبو زيد «سمعت رجلا من بني كلب يقول: هذه دأبة، وهذه امرأة شأبة، فهمز الألف فيهما[3] وبنو كلب من وسط الجزيرة.

وقد وُجِدَ من القدماء والمحدثين اتفقوا على أن الواو المكسورة كوعاء، والواو المضمومة كوجوه في أول الكلمة تقلب همزة وأشار أبو حيان إلى أن هذا القلب مطرد في لغة هذيل[4].

كما وُجِد أن السبب في القلب - كما قالوا دائما - ثقل الواو مع كلتا الحركتين، قصيرتين أو طويلتين.

وهكذا وُجِد اللسان البدوي هنا يحرص على صوت الهمزة أصلية كانت أو حالة محل أصل «نتيجة شعوره بأن الانزلاق من العنصر الأول من عنصري المزدوج إلي العنصر الثاني لا يحقق صورة النبر كما

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم / ٣٤/ لابن خالويه.
(٢) الأعلام / ٤/ ٢١٧.
(٣) لسان العرب / باب الهمزة.
(٤) البحر المحيط / ٥/ ٣٣٢.

تعـودها، فكـان الهمـز وسيلـته إلـى ذلك، دون أن يسـقط من الـمزدوج شيئا(١) كما أنه لا ضير عليه إذا حافظ عليها، ما دامت تساعده عليد أداء كلماته، ولا تعوق سرعته الكلامية التي تعود عليها.

***

(١) القراءات القرآنية / ١٣٠.

نتائج البحث

تقتضي طبيعة البحوث ـ العلمية ـ أيا كانت هويتها ـ الخروج من الدراسات المتنوعة بنتائج تخدم الفرع الذى تنتمى اليه، ومنها البحوث اللهجية التى تعطينا سمات وخصائص اللهجات العربية القديمة والحديثة، وعن طريق الدراسة لهذا البحث أرى أنه يوصلنا إلى النتائج الآتية:ـ

١- اهتمام اللغويين القدامى عامة والنحاة خاصة باللهجات العربية القديمة، وإن كانت قد وردت موزعة فى ثنايا كتبهم فلم يجمعوا شتاتها فى موطن واحد.

٢- أن الألف والهمزة كلاهما من حروف المعجم، أو الأبجدية العربية ـ رغم الخلاف الشائك بين علماء اللغة ـ التى بلغت عدتها عند ابن جنى والكافة تسعة وعشرين حرفا.

٣- أن الهمزة من ناحية المخرج حنجرية مزمارية، ومن ناحية الصفة ـ على الأرجح ـ لا هى بالمجهور ولا بالمهموس، لأن وضع الحنجرة لحظة النطق بها مغاير لوضعها حالة الجهر أو الهمس.

٤- وجود علاقة وثيقة بين اللهجات العربية القديمة والقرآنية الواردة عن القراء.

٥- تعدد صور الهمزة سواء أكانت أصلية أم غير أصلية، وموافقة النحاة لبعض القراء فى تحقيقها، أو تخفيفها، أو ابدالها.

٦- ورود استعمالات ثلاثة للهمزة الأصلية فى اللهجات العربية ـ كما أوردها سيبويه ـ وهي :ـ

(أ) التحقيق وأهله من البدو وهم تميم ومن تابعهم .

(ب) التخفيف بصوره المختلفة، وأهله من الحضر، وهم أهل الحجاز.

(جـ) إبدالها هاء أو واوا أو ياء لغير التخفيف، وهي ظاهرة اشتراك فيها التميميون والحجازيون.

٧- ورود شواهد محققة الهمزة عند أهل التخفيف، ودليلنا في ذلك ما أورده سيبويه عن قوم من أهل الحجاز يحققون «نبيء، بريئة» مع وصف هذا الاستعمال اللهجي بالرداءة، ويبدو لي أنهم كانوا من أطراف القبائل الحجازية المتصلة غالبا بقبائل الوسط والشرق، والمتأثرة بها.

٨- ورود شواهد مخففة الهمزة لأهل التحقيق، ومن ذلك القراءة (تيمنه) بكسر التاء، قال الداني هي لغة تميم، ووافقه على ذلك أبو حيان في البحر المحيط[1] وهناك شواهد أخرى مؤكدة تثبت أن تخفيف الهمزة قد ورد عن التميميين.

٩- لوحظ للهمزة في اللسان العربي البدوي وظيفة نبرية، بمعنى تقوية النبر، وإبراز مقاطع الكلمات لذا فهو يحرص عليه.

١٠- لوحظ في القبائل الحضرية التؤدة والتأني مما جعلها مستغنية عن وسيلة تبين عن مقاطعها.

" تم بحمد الله وعونه والحمد لله أولا وآخرا "

(١) البحر المحيط / ٢/ ٤٩٩ .

أهم المراجع

١- الإبدال: لأبي يوسف يعقوب بن السكيت - تح - د. حسين محمد شرف - طبع الهيئة العامة للكتاب - ١٩٧٨م.

٢- اتحاف فضلاء البشر: لأحمد بن محمد (الشهير بالبنا الدمياطي) ط١٣٥٩هـ - مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٣- الاشتقاق: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد - تح - الشيخ عبد السلام هارون - ط ثانية - ١٩٧٩م.

٤- أصوات اللغة: د. عبد الرحمن أيوب - ط ثانية - مطبعة الكيلاني - ١٩٦٨م.

٥- أصوات اللغة العربية: د. عبد الغفار هلال - ط ثانية - ١٩٨٨م- مطبعة الجبلاوي.

٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: للحسن بن خالويه - ط أولى - ١٣٢٨هـ - مطبعة السعادة بالقاهرة.

٧- الأعلام: لخير الدين الزركلي - طبعة المطبعة العربية بمصر - ١٩٢٧م.

٨- الأمالي: لأبي السعادات هبة الله بن علي المعروف بابن الشجري - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

٩- البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر - ط رابعة - عالم الكتب - ١٩٨٢م.

١٠- البحر المحيط: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي - مكتبة ومطبعة النصر الحديثة - بيروت - ١٩٨١م.

١١- البرهان في علوم القرآن: لمحمد بن عبد الله الزركشي - تح - محمد أبو الفضل ابراهيم - ط ثانية - ١٩٧٢م - دار إحياء الكتب العربية.

١٢- تاج العروس: لمحمد مرتضى الزبيدي - ط: أولى - المطبعة الخيرية بمصر - ١٣٠٦هـ.

١٣- تاريخ الأدب: للأستاذ حفني ناصف - ط ثانية - ١٩٥٨م - دار القلم - بيروت.

١٤- التجويد والأصوات: د. إبراهيم محمد نجا - مطبعة السعادة - ١٩٧٦م.

١٥- تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد بن أزهر الهروي - ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر - تح - الشيخ النجار وآخرين - ١٩٦٤م.

١٦- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - ط ثانية - ١٩٦٧م.

١٧- جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد - دار صادر - بيروت.

١٨- حاشية الصبان على شرح الأشموني: لمحمد الصبان- مطبعة دار إحياء الكتب العربية - ١٩٧٦- عيسى البابي الحلبي.

١٩- الحجة في علل القراءات السبع: لأبي على الفارسي - تح - على النجدي ناصف وصاحبيه - ط. دار نهضة مصر.

٢٠- خزانة الأدب: لعبد القادر البغدادي - ط. أولى - دار صادر - بيروت.

٢١- الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جنى - ط دار الكتب المصرية - تح - الشيخ محمد علي النجار - ١٩٥٠م.

٢٢- دراسات في علم اللغة: د. كمال بشر - دار المعارف بمصر - ١٩٧٣م.

٢٣- سر صناعة الإعراب: لأبي الفتح عثمان بن جنى - تح - مصطفى السقا وآخرين - ط. أولى - ١٩٥٤م.

٢٤- سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي - تح - الأستاذ علي فوده - مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٣٢م.

٢٥- شرح المفصل: لموفق الدين يعيش بن علي - عالم الكتب - بيروت - مكتبة المتنبي - القاهرة.

٢٦- شرح شافية ابن الحاجب: للجاربردي - عالم الكتب - بيروت - بدون تاريخ للطبع.

٢٧- شرح شافية ابن الحاجب: للرضي - تح - محمد نور الحسن وآخرين - ط دار الكتب العلمية - ١٩٧٥م.

٢٨- شرح شواهد المغنى لجلال الدين السيوطي - ط لجنة التراث العربي - تعليق: الشنقيطي وكوجان.

٢٩- العربية الفصحى: لهزى فليش - تعريب وتحقيق - د. عبد الصبور شاهين - طبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٦م.

٣٠- علم الصوتيات: للدكتورين: عبد الله ربيع محمود، عبد العزيز علام - المكتبة التوفيقية - ط أولى - ١٩٧٩م.

٣١- علم اللغة العام (القسم الثاني - الأصوات) د. كمال بشر - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠م.

٣٢- علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) د. محمود السعران - دار الفكر العربي بمصر - ١٩٨٨م.

٣٣- العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي - تح - د. عبد الله درويش - بغداد - ١٩٦٧م.

٣٤- فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب - ط. ثانية - ١٩٨٠م- مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٣٥- في اللهجات العربية: د. إبراهيم أنيس - ط رابعة - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٨م.

٣٦- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: د. عبد الصبور شاهين - مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٣٧- الكتاب (كتاب سيبويه) لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر - تح - الشيخ عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - والجزء الثالث مطبعة ومكتبة الخانجي - ١٩٧٥م.

٣٨- الكشاف: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري - دار المعرفة والطباعة والنشر - بيروت.

٣٩- الكشف عن وجوه القراءات: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيس - تح - د. محيي الدين رمضان - د. ثانية - ١٩٨١- مؤسسة الرسالة.

٤٠- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور - ط. دار المعارف بمصر - ١٩٨٠م.

٤١- اللهجات العربية في التراث: د. أحمد علم الدين الجندي - الدار العربية للكتاب في ليبيا وتونس - ١٩٧٨م.

٤٢- اللهجات العربية في جنوب الجزيرة العربية: د. اسماعيل الصيني - منشورات دار تهامة - الطائف - ١٩٨٥م.

٤٣- مجمع البيان: للطبرسي - مكتبة القلم - ط. دار صادر- بيروت - ١٩٦٣م

٤٣- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني - تح - علي النجدي ناصف وصاحبيه - مطبعة القاهرة - ١٣٨٦هـ.

٤٥- المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن اسماعيل بن سيده الأندلسي - تح - مصطفى السقا وآخرين - القاهرة - ١٩٥٨م.

٤٦- المخصص: للمؤلف السابق - ط الأميرية بالقاهرة - ١٢١٦هـ.

٤٧- مراتب النحويين: لأبي الطيب عبد الواحد اللغوي - تح - محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - ١٩٥٥م.

٤٨- المزهر في علوم اللغة: لجلال الدين السيوطي - تح - محمد أبو الفضل واخرين - دار إحياء الكتب العربية.

٤٩- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء - ط ثانية - تح محمد على النجار وأحمد نجاتي - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٨٠م.

٥٠- المعجم الكبير: لمجمع اللغة العربية - ١٩٥٦م.

٥١- المفصل في علم العربية: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري - دار الجيل - بيروت.

٥٢- المقتضب: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - تح - الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة - عالم الكتب - بيروت - ١٩٦٨م.

٥٣- مناهج البحث في اللغة: د. تمام حسان - ط مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٥م.

٥٤- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري - تصحيح الشيخ محمد علي الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٥- النوادر في اللغة: لأبي زيد الأنصاري - ط. ثانية - نشر سعيد الخوري - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٧م.

٥٦- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: لجلال الدين السيوطي - تح - الشيخ عبد السلام هارون - د. عبد العال سالم مكرم - دار البحوث العلمية بالكويت - ١٩٧٥م.

(ومراجع أخرى أشير إليها فى أثناء البحث)

***